القسم الأول

طريق النبوة والرسالة

obeikandl.com

obeikandl.com

من الرؤيا الصالحة إلى غار حراء

لأن حديثى هذا جاد كل الجد ، يستحسن أن يقرأه الإنسان ساكناً خالياً بنفسه يتملى تفاصيله ، فسندرس فيه كيف انتقل محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم من رجل من عامة أهل مكة إلى نبى مصطفى من الله سبحانه ، ثم إلى نبى مرسل حامل رسالة ربانية إلى الناس ، وسندرس فيه عن قرب مولد الإسلام مع تحول محمد من بشر سوى إلى بشر نبى ، ثم إلى بشر نبى مرسل بالقرآن إلى الناس .

والحادث على أهميته وتفرده فى التاريخ لم يدرسه أحد حق درسه ، فليس لدينا فيما نملك من قصص الأنبياء والمرسلين قبل محمد ـ سواء فى « العهد القديم » أو فى كتابات أصحاب الأناجيل أو كتابات آباء الكنيسة المسيحية من بولس الرسول إلى القديس أوغسطين ـ روايةٌ واحدة يوثق فيها نزول الوحى على واحد ممن سبق محمداً ـ صلوات الله عليه ـ من الأنبياء والمرسلين .

ومن أسف أن أحداً من كتاب اليهود لم يصف لنا كيف انتقل واحد من أنبيائهم من رجل عادى إلى نبى مرسل أو غير مرسل ،

فمـوسى عندهم ولد نبـيّاً ، وكان نـبيّاً وهو طـفل ثم صبـيّاً ثم شابّاً، وهذا كلام لا يزيـدنا بأمر « التنبية » علمـاً ، وكذلك الحال فى بقية من يذكر فى كتاباتهم ممـن يسمونهم عظماء أنبياء بنى إسرائيل من أمثال حبقوق وحزقيال .

وأما المسـيحـيون فقـد أبهمـوا أمر نبـوة المسيح عـيسى بن مريم؛ نتـيجة لما أدخله على المسـيحيـة بولس الرسول ـ وربما أثناسيوس المصرى ـ من تغييرات حاسمة ، ثم إن المسيح عيسى ابن مريم ولد للـنبوة ، وتكلم فى المهد صـبيّـاً ، ومن ثم فإننا لا نجد فى سيرته تجربة « التنبية » وكيف تأتى وما يصاحبها من أحاسيس نفسية وتحولات روحية تحدث داخل من يصطفيه الله لهذا الأمر العظيم .

ومن ثم فإن نبينا محمداً ـ صلوات الله عليه ـ هو الوحيد فى التـاريخ الذى نعلم نبـأ نبوته العلـم الصحـيح ، ونرى خطوة خطوة كـيف انتقل من حـال إلى حـال حتى صـار نبيّـاً ، وبماذا أحس ومـاذا عانى حـتى انتـقل من نبى إلى نبى مـرسل أو نبى رسول .

ولابد من أن نذكر أن هذا الانتقال الذى يستثير نفس المتطلع لا يقتـصر على اللحظة التى نـزل فيهـا الوحى على محـمد وهو

يتعبد فى غار حراء ، فقد سبقته مراحل وتطورات انتقل معها محمد من حال إلى حال ، ومن حسن الحظ أن محمداً يعيننا على هذه الدراسة بما كان يقول ويفعل أثناء تنبيته ، فقد كان صريحاً واضحاً فى حديثه عن كيف نزلت به التغيرات وهو لا يدرى عنها قبل حدوثها شيئاً ؛ ومن ثم فقد كان الخوف والحيرة والقلق تنتابه حالاً بعد حال ، حتى استوثق آخر الأمر من أنها رسالة إلهية اختصه الله بها ، وبدأ يؤدى رسالته التى اختاره الله لها واثقاً من نفسه ، مؤمناً بأن الله سبحانه وتعالى معه يؤيده ويحفظه من الناس .

ولكى أُصور لك حقيقة ما نبحث عنه فى هذه الدراسة أروى لك ما يقوله أذيع كتب السيرة النبوية الحديثة عندنا ، وهو كتاب الدكتور محمد حسنين هيكل عن حياة محمد ﷺ قال : وفيما هو نائم بالغار يوماً جاءه ملك وفى يده صحيفة . فقال له اقرأ ، فأجاب مأخوذاً « ما أقرأ ؟» فأحس أن الملك يخنقه ، ثم يرسله ويقول : اقرأ ، قال محمد ﷺ : ما أقرأ ؟ ، فأحس كأن الملك يخنقه كرة أخرى ، ثم يرسله ويقول : اقرأ . قال محمد ـ وقد خاف أن يخنق مرة أخرى ـ : ماذا أقرأ ؟!

قال الملك : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ

عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ فقرأها ، وانصرف الملك عنه ، وقد نقشت فى قلبه .

هكذا يصف هيكل واقعة « التنبيـة » دون مناقشة ، فهل كان محمد نائماً عندما جاءه الملك ؟!

وهل كانت بيـد الملك صحـيفة ؟ ومـا شكل هذه الصحيـفة ؟ وما صـفة هذه الـيد التى امـتدت إليـه بها ؟ ثم إذا كـان محـمد رسول الله أمـيّاً لا يقـرأ ولا يكتب فكيف يأتيه الملك بصـحيـفة ؟ وهل قال محمـد فعلاً : ماذا أقرأ ؟ وما المراد بهـذا السؤال إذا كان لا يقرأ ؟ إن بعض الروايات الأخرى تقول : إن محمداً قال : ما أنا بقارئ ، وهذا أقرب إلى المعقـول ، ثم ما معنى القراءة هنا ؟ أهى القراءة التى نعرفها أم الترديد والتلاوة ؟

كل هذه أسئلة لم يخطر ببـال هيكل أن يقف عندها مع عظيم أهمية الوقوف هنا ، ومتعة التفكير فى ذلك كله ، وهيكل معذور فى ذلك ؛ فما كان بالمؤرخ ، ولا هو تهيأ لدرس التاريخ والتأليف فـيه ، إنما هو كـان أديباً صـاحب أسلوب ، فصـاغ السيـرة فى أسلوبه وعلى طريقته بعيداً جداً عن التاريخ ، وكذلك كان كل ما كتبـه طه حسين والعقـاد فى السيرة ، فهى كـتابات أدباء ذوى ملكات أدبية وقدرات ذهنية ، فكتبـوا فى السيرة والتاريخ قطعاً

من الأدب أو التأملات الشخصية ، وكتاباتهم كلها لذلك تدخل فى باب الأدب ، ولا مدخل لها إلى التاريخ من أى باب .

ونقول الآن : إن التجربة التى مر بها محمد بن عبد الله وتحول بها من بشر إلى نبى تجربة طويلة ، تبدأ منذ اقترابه من بلوغه سن الأربعين ، تبدأ بتمهيدات وحالات مر بها محمد حالة بعد حالة .

وهذه الحالات إعداد نفسى لكى يتحمل الرسالة ؛ لأن « أمر النبوة ثقيل » ـ كما يقول ابن كثير ـ ولم ينته التحول بنزول الوحى فى غار حراء ، بل استمر التحول بعد ذلك خلال فترة الوحى ، أى : تأخرت عودته عن رسول الله حتى نهاية الفترة ونزول أول سورة المدثر التى أمر الله فيها نبيه بأن يقوم فينذر. وربه فيكبر . وثيابه فيطهر . والرجز فيهجر . ولا يمنن يستكثر، وهى مدلولات الآيات الأولى من سورة المدثر .

هنا استقر قلبه واطمأنت نفسه ، وعرف حقيقة ما مر به من تجارب وما شعر به من أحاسيس ، واستوثق من أن الله ـ سبحانه ـ قد اختاره ليبلغ للناس رسالة كبرى ، فشرع فى الصدوع بما أمره الله سبحانه ، واتصلت بعد ذلك حلقات السيرة الشريفة .

على هذا الأساس من اعتبار عملية انتقال رسول الله ﷺ من بشر إلى بشر رسول عملية واحدة طويلة الأمد ، تبدأ من قبيل بلوغه الأربعين ، ولا تنتهى حتى يعلم محمد علم اليقين أنه نبى مرسل ، وأن هذا الذى يأتيه هو ملك من السماء ، يحمل إليه رسالة ربه ليبلغها إلى الناس . وهنا نجد أنفسنا أمام مشكلة كبرى .

ذلك أن النصوص التى تروى لنا أحداث هذا التحول يختلف بعضها عن بعض اختلافاً بيناً ، وكلها ـ وهذا أمر يدعو إلى الاستغراب ـ مسندة إلى رواة ممن يوثقهم أهل الحديث ، ولا يجرحهم أو يضعفهم منهم إلا القليل ، وهذه الأحاديث نجدها عند الطبرى والبلاذرى واليعقوبى . ومن إليهم من الثقات ، ولكننا عند التدقيق والتحقيق نجد أن هؤلاء كلهم جماعون يروون كل ما يلقى إليهم دون نظر أو تأمل ، بل نجد محدثاً مؤرخاً متأخر الزمان هو أبو عمر يوسف بن عبد البر النمرى أنفذ من هؤلاء جميعاً بصيرة ؛ لأنه رجل يستعمل ذهنه ، والسيرة النبوية التى افتتح بها كتاب « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب» من أكبر السير قيمة رغم اختصارها ، وكذلك ما يورده ابن سيد الناس فى كتاب « عيون الأثر » .

ولكن أولى الناس بالثقة فى هذا الموقف هو البخارى ، محمد ابن إسماعيل ؛ فإن صحيحه حقاً أبو الصحاح وكتب السنن والمسانيد وكتب التاريخ فيما يتصل بسيرة الرسول ﷺ ؛ ولهذا فسنأخذ أقرب الأحاديث التى يرويها إلى المنطق التاريخى ، ونعتمد عليه أساساً ، ثم نضيف إلى تلك القاعدة السليمة ما نرى من شتى الأصول حتى تكتمل لدينا الصورة التى نريد أن نجليها للناس .

وإليك حديث البخارى الذى يرويه بإسناده عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ وسنقسم الحديث إلى فقرات حتى نستطيع تحليل مادته التاريخية تحليلاً دقيقاً :

قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ :

١ ـ أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

٢ ـ ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يلحق بغار حراء ، فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالى ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها .

٣ ـ حتى جاء الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : قلت : ما أنا بقارئ .

قال : فـأخذنى ، فغـطنى حتى بلغ منى الجهـد ، ثم أرسلنى قال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ .

فـأخـذني فـغطني الثـانيـة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ .

فـأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال :

﴿ اقْـرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ الإنسَـانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْـرأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ ﴾ .

٤ ـ فـرجع بهـا رسـول الله ﷺ يرجف فـؤاده ، فـدخل على خديجـة بنت خويلد ، فقال : زملوني ! زملوني ! فزملوه حتي ذهب عنه الروع .

٥ ـ فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى .

فـقـالت خـديجـة : كـلا والله مـا يخـزيك الله أبداً ، إنك لتـصل الرحم، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين علـى نوائب الحـق .

٦ ـ فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد ابن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما

شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة: يابن عم :

اسمع من ابن أخيك .

٧ ـ فقال له ورقة : يابن أخى ، ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى ، ياليتنى فيها جذعاً ! ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك .

فقال رسول الله ﷺ : أو مُخْرِجِيَّ هم ؟ قال : نعم !

لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِىَ ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وفتر الوحي .

وبقية خبر ذلك الحادث الفاصل الجليل نجدها فى أحاديث أخرى لرواة شتى أصحهم وأقربهم إلى المفهوم التاريخى هو ما جاء فى صحيح البخارى ، ولكننا نؤثر أن نقف هنا وقفة طويلة ندرس فيها ما حدث إلى هذا الحد .

نلاحظ أن كل ما ذكرناه مرتبط بما أسلفناه من أن محمداً صلوات الله عليه ـ كان قبل أن يدخل فى مراحل النبوة قد اتجه

بقلبه ونفسه إلى البحث عن الحق أنفة من الأوثان ، وبصيرة منه بأنها عبث لا طائل وراءه ، أى أنه سار فى طريق من ذكرنا من الحنيفية دون أن يكون فى جملتهم ، إنما هو كان يبحث وحده عن ملة إبراهيم عليه السلام .

وهذا بدوره مرتبط أشد الارتباط بما كان محمد عليه طوال ما مضى من حياته كلها ، فقد وجهه الله ـ سبحانه ـ فى طريق الفضائل والكمالات ؛ لما سبق فى تقديره ـ سبحانه ـ من أنه مصطفيه للرسالة الكبرى ، فكان مثالاً فى الفضل والخير والعصمة من الزلل حتى تستقيم معه الرسالة .

ومن غريب الأمر أن محمداً نشأ فى حجر عبد المطلب ، وعبد المطلب هو الذى جمع مذاهب الوثنية الجاهلية كلها فى مذهب واحد يقول بأن لكل قبيلة أن تعبد الوثن الذى تريد كيف شاءت فى منازلها ، فإذا جاء موسم الحج حجت القبائل كلها إلى الكعبة ، فجعلت كل قبيلة صورة من وثنها حول الكعبة لتحج إليه مع بقية العرب ، وأحكم عبد المطلب نظام الحج ورتب أمره، وجعله كله فى قريش وفق نظام وضعه لها ووفق فيه بين ميول القبائل جميعاً ، وسمى ذلك بدين عبد المطلب ، وهذا الدين الوثنى الذى ألفه عبد المطلب من وثنيات القبائل هو الذى وقف

أعداء الإسلام يدافعون عنه ، فكأن محمداً ـ صلوات الله عليه ـ كان عليه أن يهدم دين جده عبد المطلب ؛ ليحل محله دين الله أو دين محمد .

وهذه النشأة الطيبة والخلق الجميل الذى تميز به محمد كان جزءاً من عملية التنبية ، ولكن ذلك كله هو المقدمات البعيدة. والذى يهمنا الآن أن ننظر فى المراحل الحاسمة من الانتقال إلى النبوة كما رواها البخارى بإسناده الذى ذكرناه، وسنورد التفصيل على نفس نسق أرقام فقرات الحديث .

١ ـ فى حديث عائشة أن أول ما بُدِئَ به محمد من الوحى الرؤيا الصالحة ، وتسمى أحياناً بالرؤيا الصادقة ، والمراد بها هنا رؤى جميلة ينشرح لها الصدر وتطرب لها الروح .

فكان أثرها فى نفسه شبيهاً بحالة الإشراق التى يتحدث عنها الصوفية ، وربما بدأت هذه الحالة عند الرسول عندما بلغ التاسعة والثلاثين وعلى أثر خلواته فى غار حراء أو فى البرية بحثاً عن الحق ، ولا يمكننا أن نقول : إن محمداً بدأ بالخلوة فى غار حراء شهراً من كل سنة مدة طويلة قبل أن يبلغ الأربعين؛ فقد كان رسول الله يعمل منذ ضرب فى مداخل الشباب بالتجارة، وظل يعمل فيها حتى صار نبيّاً ، وقد روى البلاذرى أن محمداً

بعد أن جاءته الرسالة وبدأ يدعو لـها جاءه رجل يكلمه عن مال كان له ـ أى : لمحمد عنده ـ فـقال محمد شيئـاً فيه معنى أن ذلك الأمر والمال لم يعد يعنيه .

ولسنا نعلم شيـئاً عن طبيـعة هذه الرؤى ، ولا نريد هنا أن نذكـر شيـئـاً مما ذكـره المتأخـرون من أهل السـيـرة من أمثـال الزرقانى فى كـتابه المسمى «شـرح المواهب اللدنية » ، والمواهب اللدنيـة شرح لسيـرة ابن هشام ، وكـتاب الزرقانـى شرح على شرح ابن هشـام ، وسيرة ابن هشام نفسها صيـاغة شخصـية صنعها محمد بن عبـد الملك بن هشام لسيرة النبى التى وضعها محمد بن إسحاق بن يسار المطلبى ، وقد بَدَّلَ فيها وغَـيَّرَ وحذف وأضاف ، ومن هنا فنحن نعتبر سيرة ابن اسحاق شيئاً وسيرة ابن هشام شـيئاً آخر ، ونحن اليـوم فى تأريخنا للسيرة نعـتمد على الصـحاح والمسـانيد وكـتب السنن بعد القـرآن الكريم ، ثم على ابن إسـحـاق والبـلاذرى والواقدى واليـعـقـوبى ومن فى طبقتهم وأصالتهم . ولا نكاد نعتمد على ابن هشام إلا قليلاً جداً.

هذه الرؤى الجمـيلة التى كان مـحمد يصـحو منهـا منشرح الصـدر ، متـفتح النفس لـكل ما فى الحـياة من جـمال ـ كـانت مرحلة إشراق روحى دخل فيها محمد ليبتعد عن الحياة ويرتفع

عن صغائرها ، دون أن ينفصل عن الناس ، وهى تمهيد طبيعى للانتقال إلى مرحلة أخرى من مراحل النبوة ، وتعبير « فلق الصبح » هنا يعيننا على تصورها ؛ فإن الإنسان منا إذا قضى ليلة هادئة نام فيها نوماً هنيئاً وأصبح فنظر إلى حديقة ذات أشجار وخضرة وزهور أحس فى نفسه فعلاً كأن نفسه تمتلئ بنور صاف يشبه الفلق ، وهو ضياء الصبح إذا انبلج ، ولفظ (الفلق) نفسه قرآنى ؛ فقد ورد فى مطلع السورة الثالثة عشرة بعد المائة من القرآن الكريم ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ويفسر المفسرون الفلق هنا بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ فلق ظلمة العدم بنور الإيمان ، وهذا النور هو الذى كان يملأ نفس محمد عندما يصحو بعد رؤية من هذه الرؤى الصالحة .

٢ ـ ثم حبب إليه الخلاء فكان يلحق بغار حراء فيتحنث فيه.

ومن الطبيعى بعد ذلك أن يحس محمد برغبة فى الخلو بنفسه ؛ لأنه فى هذه الحالة من الإشراق النفسى والبهجة الروحانية يجب أن يخلو إلى نفسه ؛ ليستمتع بهذه الحالة ، ومحيى الدين بن عربى فى الفتوحات المكية و « ترجمان الأشواق » يتحدث عن حنين من تشرق نفسه بنور الله إلى

الخلوة والبعد عن الناس ، ومادام الأمر أمر نبوة قادمة فلا يتفق مع جلالها أن يكون محمد منصرفاً إلى شئون المعاش مخالفاً للناس ، ثم يطرقه الوحى بغتة وسط الخلق ، أو وهو خال فى بيته مع أهله من زوج أو ولد .

وقد كان محمد يعرف هذه الخلوة فى البرية أو فى غار من غيران الجبال حول مكة ، فقد كان يفعل ذلك عندما اتجهت نفسه إلى البحث عن الحق وطلب الحنيفية ملة إبراهيم .

ولكن الخلوة فى الجبل أصبحت الآن خطوة من خطوات الدخول فى النبوة ، ومن هنا فقد كان أساسيّاً أن تكون لفترات طويلة ؛ لأن محمداً هنا يبتعد لبعض الوقت عن البشر ؛ ليتم تحوله الروحى ويتلقى الرسالة ، ثم يعود إلى الناس نبيّاً مرسلاً ؛ لكى يدعوهم للدخول فيما ألقى الله فى صدره من الإيمان .

ولفظ (التحنث) هنا لفظ جديد ، يفسره بعض مؤرخى السيرة بأنه تعبد الليالى ذوات العدد « أى : الليالى المتصلة » ويفسره آخرون بأنه التبرر ، وهو لفظ يراد به تصفية النفس بأعمال البر ، وفى هذا المعنى يقول الطبرى رواية عن ابن حميد:

« فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة ، يطعم من جاءه من المساكين » وقد كان غير محمد من الحنيفية الباحثين فى الحق يفعلون ذلك ، ولكن لابد أن يكون هناك معنى ثان للتحنث أو التبرر ؛ لأن التحنث هو الانفراد للتعبد ، فبماذا كان محمد يتعبد إذْ ذاك ؟ وإذا كان التحنث هو التبرر ، والتبرر هو إطعام المساكين ، فإن المساكين لا يسألون بالليل ، فلماذا يقضى محمد هناك الليالى المتوالية ؟

ثم من هم أولئك المساكين الذين كان محمد يطعمهم ؟ إن البرية شمال شرقى مكة حيث جبل حراء كما نراها اليوم من أشد ما نعرفه محلاً ؛ فلا شجرة ولا عشب ولا ماء ، ولكن الثابت أن هذه النواحى كلها فى أيام الرسول كانت خضراء معشوشبة فيها نبات ورعاة وطير وأشجار ، لم تكن بالغة الخضرة بل كانت أرض حشائش ، ونحن الآن فى نهايات العصر الثلجى الثالث ، وقد اشتد الجفاف وأمحلت الصحارى .

ولكن قبل ألف وأربعمائة سنة كانت هناك بقية من الخضرة الغزيرة التى كانت تغطى نطاق الصحارى فى نصف الكرة الشمالى بعد ذوبان الثلوج وانحسارها إلى الشمال ، وكان محمد إذا خرج إلى حراء وما حوله لم يخرج إلى أرض قاحلة

خالية كئيبة ، بل إلى أرض معشوشبة ذات خضرة ومراع قليلة ورعاة ، وأولئك هم المساكين الذين كان محمد والحنيفية أيضاً يطعمونهم ويأنسون بهم ، ويتبررون بالإحسان إليهم فى تلك الخلوات .

* * *

obeikandl.com

قبيل نزول الوحى

فى حديثـنا الماضى وصلنا بمحمـد بن عبـد الله ﷺ إلى غار حراء ، وذلك فى تتبعنا انتقاله من بَشَرٍ إلى بشرٍ نبى فَبَشرٍ نبى مرسل ، معتمدين فى ذلك أساساً عـلى حديث محمد بن إسماعيل البـخـارى عن هشام بـن عروة بن الزبـير عن أبيـه عـروة عن عائشة أم المؤمنين (وهى خالته) .

وبلغنا فى دراستـنا لهذا الحديث إلى نهـاية الفقرة الثـانية عن إخلاد محمـد إلى الانفراد بنفسه فى غار حـراء شمال شرقى مكة للتحنث الذى يفسـره أصحاب السيرة واللغـة بأنه التبرر ، أى القيام بأعمال البر ، وقلنا : إن هذا التفسير غير مقنع ، حقًا .. إن محـمداً ﷺ كـان يطعم من يمر بـه من السؤَّال ، وكـذلك كان يفعل الحنفاء الباحثون عن ملة إبراهيم قبله وفى زمانه ، ولكن من المؤكد أن محمداً لم يكن يخرج إلى الغار لهذا وحده .

وقد عثرت وأنا اقرأ سورة النحل من الكتاب العزيز على آية تفسر لنا التحنث تفسيراً جديداً يعيننا على فهم هذه المرحلة من الحياة المحمدية أكثر مما نفهمها إلى الآن ، وذلك حيث يقول الله ـ

سبحانه ـ فى الآية العشرين بعد المائة من سورة النحل : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل :١٢٠) إذن فقد كان تعبد إبراهيم ـ عليه السلام ـ لله هو القنوت ، والقنوت : هو التعبد لله وذكره فى صمت ، وما زال الصالحون عندنا يقنتون بعد الصلاة ، والشاعر الأندلسى لسان الدين بن الخطيب فى مقارنته لسكون الموت بعد صخب الحياة يقول :

كجهر الصلاة تلاه القنوت

إذن فالتحنث هو القنوت ، والقنوت هو صلاة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ومن اتبعه فى ملته ومنهم الحنفاء ، وهذا التفسير يحل لنا مشكلة طالما شغلت بالنا ، وهى مشكلة عبادة محمد ﷺ قبل أن يتنزل عليه القرآن ، وأى شىء كانت .

وهذا التحنث أو القنوت لله فى الخلوة بعيداً عن الناس كان المرحلة الثانية من مراحل انتقال محمد من البشرية إلى النبوة فالرسالة ، وهى مرحلة لم يكن منها بد لذلك التحول العظيم بالصورة التى قدرها الله ـ سبحانه ـ فى علمه ، ولو شاء الله أن ينقل محمداً من البشرية إلى النبوة بكلمة واحدة منه لفعل ، بل لو أنه شاء ـ سبحانه ـ أن يولد محمد نبياً كما ولد موسى وعيسى أنبياء لفعل ، ولكن العبرة الكبرى فى البعثة المحمدية كانت الانتقال من البشرية إلى النبوة فالرسالة ، مع احتفاظ

محمد ببشريته كاملة ؛ ليكون بشراً رسولاً حقّاً ؛ ليكون ببشريته مع الناس ومن الناس ، يسعد ويتألم ، ويجتهد ويشقى ، ويعانى ، ويوفق أو لا يوفق فى بعض ما يسعى إليه ، ويحقق رسالته الكبرى بوسائل البشر ؛ فتكون حياته أسوة، ويكون جهاده قدوة للناس ، وتكون نبوته وما يبلغ للناس من رسالات ربه نوراً إلهيّاً يضىء للناس من حوله ومن بعده ، فتتم بذلك الرسالة المحمدية على أكمل الوجوه .

وقد كشفنا فى أثناء هذا التحقيق عن حقيقة تغيب عن أذهان الكثيرين من الدارسين ، وهى أن الظروف الجغرافية والمناخية فى مناطق الصحارى فى نصف الكرة الشمالى (وفيها جزيرة العرب كلها) كانت تختلف قبل أربعة عشر قرناً عما هى عليه اليوم ، فقد كانت جزيرة العرب كلها ، وصحراء إفريقية الكبرى ، وما يحاذيها على مدار الأرض مناطق أعشاب قصيرة تتخللها الأشجار الكبيرة حيناً والصغيرة أحياناً ، وكانت هذه النباتات تنمو فى تربة سميكة تكونت من رواسب المياه عند ذوبان الثلوج وانسحابها إلى الشمال فى نهايات العصر الثالث، وكانت المياه موجودة إما فى صورة مسايل صغيرة أو وديان تحمل الماء فى فصل الشتاء وتجف فى الصيف ، وإما فى صورة آبار قريبة العمق أو بعيدته ، وفى وصف أبى عبيد البكرى

لجزيرة العرب ، وهو وصف يعتمد على ما كتبه أوائل الجغرافيين العرب الذين كتبوا فى القرنين الهجريين الثانى والثالث من أمثال السكونى والحربى وعرام بن الأصبغ ، نجد ذكراً كثيراً لمياه جزيرة العرب فى كل موضع ، بل يقول : « إن الماء كان يخرج فيها بأدنى شىء » وفى تفاصيل البعوث والسرايا والغزوات أيام الرسول ـ صلوات الله عليه ـ نجد أن الناس كانوا يسيرون فى أراضى أعشاب وأشجار وافرة المياه، كثيرة حيوان الصيد من غزلان ووعول وحمير وحشية ، وقد جفت هذه التربة وتفتتت بفعل الجفاف المستمر ، وأذرت بها الرياح ، وانكشفت الصخور وتعرت الأرض ، وتحولت حول مكة خاصة إلى هذا المحل الموحش الذى هى عليه اليوم ، ومن هنا فإن غار حراء لم يكن بالارتفاع الذى هو عليه اليوم ، ولا كان الصعود إليه عسيراً كما نراه اليوم .

ومحمد ـ صلوات الله عليه ـ كان إذا خرج إلى غار حراء لم يكن يمر فى طريق موحش ليس بذى زرع ولا غرس ، بل هو مملوء بالصخور ، لا عمران فيه ولا يأوى إليه الناس ، ولا يستأنسون به ، كما قال شيخنا المرحوم محمد أبو زهرة فى السيرة التقليدية التى كتبها لرسول الله بعنوان «خاتم النبيين » إنما كان الرسول يسير فى طريق لين سهل فيه خضرة قليلة

وشـجر وبعض مـاء ، وكان إذا وصل إلـى حراء لم يشق عليـه الصعود إليه كما يشق علينا اليوم ، وكان إذا جلس فى الغار لم تقع عينه على محل موحش يغلب عليه سواد الحجارة البازلتية الذى يملأ النفس كآبة إذا نحن أطلـنا النظر إليه من داخل الغار، إنما كانت عـينه تجول فى فـضاء عـامر بعض الشىء بالحـياة والخضرة والشجـر ، فتستريح إليه نفسـه ، ويقبل على ما كان ينصرف إليه من تحنث أو قنوت .

والآن نأتى إلى الغار ونزول الوحى على محمد فيه !

فماذا حدث فى الغار ؟! ..

الخبـر كمـا يرويه الدكتـور هيكل فى كتـابه عن محـمد ﷺ يقول: «وفيما هو نائم بالغار يومـاً جاءه ملك فى يده صحيفة ، فـقـال له: اقـرأ ، فـأجـاب مأخـوذاً : مـا أقـرأ ؟ .. إلى آخـر ذلك الحديث » .

والخـبـر على هذه الصـورة يضـيـع أعظم مـعـانى الوحى والبعث المحـمدى ، فهـو يجعل الأمر كلـه رؤيا أو مناماً ، مع أن العبرة كلها فى أن الوحى نزل على مـحمد وهو فى تمام صحوه ويقظته ؛ لأن المنامـات يستوى فـيها كل الناس ؛ لأنها أضـغاث أحلام بلا ضابط . ثم مـا شأن هذه الصحيفـة التى أتى بها الملك

ليقرئها لمحمد .. ومحمد أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب ؟ . وهذاقطعاً ليس كلام هيكل ، إنما هو كلام إميل درمنجن . وهو مستشرق فرنسى معتدل ، كتب كتاباً مقبولاً بعض الشيء ، فقرأه هيكل وأعجبه، وبدأ ينشره ملخصاً فى « السياسة الأسبوعية » ثم استهوته السيرة ، فمازال يعمل حتى كتب كتابه المعروف الذائع عن حياة محمد ، وقد تخلص بعض الشيء من إسار درمنجن ، ولكنه ظل متأثراً به فى الطريقة والأسلوب . ودرمنجن وغالبية المستشرقين يعجبهم أن يقولوا : إن نزول الوحى على محمد إنما كان رؤيا رآها وهو نائم !! وما كانت قَطُّ برؤيا نائم ، إنما شهود رجل فى أتم حالات الصحو والوعى ، وقد تمهدت نفسه لتلقيها بالرؤى الصالحة وإشراق النفس بنور الله أثناء الخلوة حول جبل حراء ، وفى الغار ، ومن الثابت فى بعض النصوص أن محمدًا لم يكن يلزم الغار معظم الوقت ، بل كان أحياناً يتجول فى منطقة حراء ، فقد روى محمد بن إسحاق المطلبى عن عبد الملك بن عبيد الله بن العلاء بن حارثة الثقفى ، وكان واعية عن بعض أهل العلم ـ أن رسول الله ﷺ حين أراده الله بكرامته وابتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته بعد حتى تحسر عنه البيوت ، ويفضى إلى شعاب مكة وبطون أوديتها ، فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال : « السلام عليك يا رسول الله » فيلتفت

حوله عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة ، فمكث ﷺ كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث ، ثم جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله ، وهو بحراء فى شهر رمضان .

وهذا كذلك خبر لا نستطيع قبوله فى جملته ؛ لأن الشجر والحجارة إذا كانت تناديه قبل مشهد الغار بأنه رسول الله فما معنى فزعه وخوفه على نفسه بعد أن نزل عليه الملك أول مرة ؟

ولكن الذى يعنينا منه أن محمداً كان يتمشى فى الخلاء والفلاة ، يتأمل ويتفكر ، ثم يصعد إلى الغار : ليجلس فيه إذا شاء .

ومسألة المنام هذه التى ذكرها درمنجن وهيكل من بعده لم تختلق اختلاقاً ، إنما هى تستند إلى أخبار رواها ابن هشام وغيره دون تحقيق ، منها خبر يرويه عبد الله بن الزبير يقول فيه : حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ، ورحم العباد بها جاءه جبريل بأمر الله ، قال رسول الله ﷺ : جاءنى وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب ، فقال : اقرأ .. ثم يقول : ثم انتهى ـ أى : الملك ـ فانصرف عنى ، وهببت من نومى ، فكأنما كتب فى قلبى كتاباً .. وهذا أيضاً خبر غير مقبول فى جملته وتفصيله ، ولا يثبت لأدنى مقاييس النقد التاريخى ، ولكن

محمد بن إسحاق رواه دون تفكير ، ونقله ابن هشام دون تدبر ، وتلقفه المستشرقون فجعلوا منه حجة علينا ، ثم جاء هيكل فرواه دون نظر ، فألحق بالسيرة بذلك ضرراً بليغاً .

وقد حاول الحافظ ابن كثير أن يوفق بين حديثى النوم واليقظة فقال : إن النبى ﷺ شهد هذا المشهد مرتين : الأولى فى المنام ، والثانية فى اليقظة ، وأضاف : وقد جاء مصرحاً بذلك فى مغازى موسى بن عقبة عن الزهرى أنه رأى ذلك فى المنام ، ثم جاءه الملك فى اليقظة .

ولا أدرى من أين أتى موسى بن عقبة بذلك ، حقّا إن موسى ابن عقبة كان حجة فى المغازى ، وقد روى عن مالك بن أنس أنه قال : من طلب المغازى فعليه بموسى بن عقبة ؛ فهو شيخها ، ولكن المغازى جزء من السيرة ، وليس من الضرورى أن يكون شيخ المغازى شيخ السيرة ، فقد كان الواقدى شيخاً كبيراً من شيوخ المغازى ، ولكنه لم يكن فى السيرة بكاملها ندا لابن إسحاق .

وأراد أبو نعيم الأصفهانى فى « دلائل النبوة » أن يؤكد القول بالمشهدين : مشهد النوم ، ومشهد اليقظة ، فقال : إن هذا شأن الأنبياء جميعاً يأتيهم الوحى ابتداء فى المنام حتى إذا

تهيئوا للقاء الوحى عياناً جاء إليهم ، وأضاف : فقد نقل عن علقمة بن قيس أنه قا ل: إن أول ما يؤتى به الأنبياء فى المنام حتى تهدأ قلوبهم ، ثم ينزل الوحى .

ولا ندرى من أين أتى أبو نعيم أو علقمة بن قيس بهذا الكلام ، فهذه معلوماتنا عن الأنبياء ، وما أقلها عند التمحيص باستثناء ما ورد فى القرآن الكريم بين أيدينا ، وليس فيها خبر عن نبى واحد أتاه الوحى أولاً فى النوم ثم اليقظة ، بل ليس لدينا خبر واحد عن كيفية نزول الوحى على أى نبى ما عدا محمداً ـ صلوات الله عليه ـ وقد عَلَّلْنَا ذلك بما قلناه من أن محمداً هو النبى المرسل الوحيد الذى انتقل ببشريته إلى نبوته فرسالته مرحلة بعد مرحلة ؛ ليكون فى نفس الوقت بشراً ورسولاً أو بشراً رسولاً كما ورد فى القرآن ، ولبشرية محمد دورها ، ولنبوته دورها فى بناء المسلم أو جماعة المسلمين .

ثم يجىء شيخنا محمد أبو زهرة فيحدثنا عن شىء يسميه رؤية اليقظة ، أى : أحلام اليقظة كما نقول ، وأحلام اليقظة نعرفها جميعاً ، ولكنها ليست مما يناسب حادثاً ضخماً غيَّر مجرى التاريخ مثل البعثة المحمدية .

وخلاصة ما نستطيع قوله فى هذا المقام هو أن حديث

البخارى الذى نعتمده هنا أساساً ؛ فهو القول الفصل فى الموضوع ، وأن نزول الوحى على محمد أول مرة فى غار حراء حدث وهو فى تمام وعيه ويقظته ، وهذا هو القول المناسب لهذا الموقف العظيم .

ويذكر الطبرى عن سنده ابن حميد ، وهذا يروى عن ابن قتادة ، وهو عبيد بن عمر الليثى : أن محمداً كان يخرج إلى غار حراء فى شهر رمضان الذى نزل عليه الوحى فيه ومعه أهله .

والمراد بأهله هنا السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ والمراد هنا أن السيدة خديجة كانت تخرج معه أحياناً فتقضى معه اليوم وهو منصرف إلى تحنثه أو قنوته ، وربما أوصلته إلى الغار وتركت معه زاده من الماء والطعام ثم عادت إلى بيتها لتنتظر عودته ، ويفهم من حديث البخاى الذى رويناه أنه ﷺ كان يتزود لأيام ، فإذا نفد زاده عاد إلى بيته ليتزود لأيام أخرى .

ويبدو أن ما يذكره البخارى هنا من التزود لعدة أيام كان يحدث فى أوائل رمضان ، وأن محمداً كان يعود إلى بيته فى نهاية كل يوم عندما اقترب نزول الوحى عليه ، ودليلنا على ذلك أن محمداً فى اليوم الذى نزل عليه الوحى فيه أول مرة استأخر

فى العودة إلى بيته مع المغيب حتى قلقت عليه السيدة خديجة، فأرسلت من يتعجله أو يستجلى سبب تأخره ، قال الطبرى متابعاً لرواية خبر نزول الوحى عن ابن قتادة قال : والمراد هنا محمد ﷺ بعد أن نزل عليه الوحى ، وخرج من الغار فإذا جبريل فى صورة رجل صافٍّ قدميه فى أفق السماء يقول : يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبرئيل . قال : فوقفت أنظر إليه ، وشغلنى ذلك عما أردت ، فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فمازلت واقفاً ما أتقدم أمامى ولا أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ، ثم انصرف عنى وانصرفت إلى أهلى حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها ، فقالت : يا أبا القاسم ، أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلى !!

وهنا نجد ابن قتادة يخلط فى رواية الأحداث ، فإن جبريل لو كان ظهر لمحمد فى أفق السماء وقال له : يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبرئيل وهو عائد من الغار لما كان ثمة ما يدعو لفزع محمد .. وخوفه على نفسه ، وإسراع خديجة به إلى ورقة ثم إن محمداً عندما قص ما حدث له على ورقة لم يشر إلى

ظهور جبريل له فى أفق السماء ، والحقيقة أن ذلك حدث فعلاً ، ولكن فى نهاية فترة الوحى عندما شاء الله أن يتأكد محمد من أنه نبى مرسل من الله حقّاً ؛ لتنتهى مخاوفه ويشرع فى أداء رسالته .

ولكن الذى يعنينا هنا هو قلق خديجة على محمد لتأخره فى العودة إلى بيته ، فهذا يدل على شيئين فى غاية الأهمية ، الأول : هو أن محمداً عندما اقترب نزول الوحى عليه كان يعود إلى بيته فى نهاية كل يوم ، وإذا لم يكن يعود إلى بيته قبل المغيب فلماذا قلقت عليه السيدة خديجة وأرسلت فى طلبه ؟ والأمر الثانى : هو أن الوحى نزل عليه بعد ظهر اليوم الذى بعث فيه ؛ ولهذا تأخر فى العودة ، ولو أن الوحى نزل عليه صباحاً لأسرع إلى بيته مع الظهر مثلاً ، وما كان هناك ما يدعو قط إلى قلق خديجة عليه .

أما أن يكون الوحى قد أتاه ليلاً فمستحيل ؛ لأن المأثور عندنا أن محمداً ﷺ بعد أن أقرأه الملك الآيات الأولى من سورة العلق ظل لحظات واجفاً ، ثم انطلق إلى بيته مسرعاً ، وهذا ظاهر من حديث البخارى ، فقد جاء فى الفقرة الرابعة من ذلك الحديث : فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على

خديجة بنت خويلد فقال : « زملونى .. زملونى » فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، ومثل هذا لا يحدث فى سواد الليل ، وإلا لكان الوقع على محمد أولاً ثم على خديجة ثانياً شديداً جدًا .

ولابد أن نلاحظ هنا أن السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ لابد أن تكون قد أحست أن شيئاً عظيماً سيحدث لزوجها ، فليس من العادى أن يخرج الرجل إلى البرية شهراً كاملاً دون أن ترى زوجه فى ذلك شيئاً يستدعى السؤال والاستفهام، وأبسط ما كنا نتوقعه أن تسأله عن حقيقة ما كان يحس به ، وليس فى هذا السؤال ما يقع من محمد موقع الاستغراب أو الإنكار ، فهذه زوجه الوفية وأقرب الناس إلى نفسه ، فإذا سألته كان ذلك محبة منها وعطفاً ، ولكن خديجة لم تسأل ولم تتعجب .

إنها هى كانت تفعل ما يطلبه منها دون سؤال ، كأنها كانت تشعر بأنه فى حاجة إلى الخلوة بنفسه ، وكأنها كانت تعرف : لماذا يريد أن يخلو بنفسه ؛ ولهذا أيضاً كانت ترافقه فى ذهابه إلى الغار ، فإما بقيت معه وإما عادت لتنتظر أوبته ، وكل ذلك كان تقديراً من الله ـ سبحانه ـ لأن محمداً إذا كان الله قد هياه لتلقى الوحى فلابد أن يكون قد هيأ خديجة أيضاً لتلقى محمد بعد أن جاءه الوحى وأتاها خائفاً يقول : زملونى . فأسرعت

وزملته، حتى إذا ذهب عنه الروع وقص عليها الخبر لم تنزعج له ، ولا هى شكت فيه ، إنما هى صدقته وقالت كلاماً جميلاً نجده فى حديث البخارى ، ثم انطلقت به إلى ورقة بن نوفل ، لا لكى ترى إذا كان مثل هذا الأمر ممكناً أو غيرممكن ، بل لكى تعرف كنهه وما وراءه .

أما تحديد اليوم الذى حدث فيه نزول الوحى فمطلب عسير ولا داعى لأن نقف عند ما يروى البراء بن عازب من أنه ﷺ بعث وله يومئذ أربعون سنة ويوم ، فهذا تكلف لا طائل وراءه ؛ لأنه قائم على ما ورد فى القرآن من أن محمداً ﷺ بعث بعد أن قضى مع قومه عمراً وتحديد العمر بأربعين سنة ﴿ **قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** (١٦) ﴾ (يونس الآية ١٦) .

ولا معنى كذلك لأن نأخذ بما يقوله محمد بن موسى الخوارزمى الفلكى من أن محمداً بعث يوم الاثنين لثمان خلت من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل ، فإن المسألة هنا ليست مسألة فلك ، فمن الثابت عندنا الآن أن عام الفيل لم يكن عام مولد الرسول محمد ﷺ ، فقد كان عام الفيل وعبد المطلب فى شبابه ، وولد رسول الله وعبد المطلب شيخ ،

فبين عام الفيل ومولد الرسول ما لا يقل عن ثلاثين سنة ، ثم من أين للخوارزمى أن يعلم أن يوم الاثنين ٩ من ربيع الأول سنة ٤١ لعام الفيل هذا كان يوم اثنين . وإذا كنا لا نعلم متى كان عام الفيل على وجه التحديد فكيف نعلم أن التاسع من ربيع الأول منه كان يوم اثنين ؟

هنا نلتزم حدود ما قاله البخارى ، فهو لم يحدد يوماً ولا تاريخاً ، ولكن جمهور المسلمين على أن البعث كان فى شهر رمضان بعد بلوغ محمد الأربعين سنة من عمره ، وأنه كان فى العشر الأواخر من رمضان ؛ لأن القرآن أنزلت أولى آياته على محمد فى ليلة القدر ، وليلة القدر لم يحددها أحد ، إنما قال رسول الله ﷺ : « التمسوها في العشر الأواخر من رمضان » ونحن فى هذه المسائل عند الثابت من حديث المصطفى صلوات الله عليه .

***

obeikandl.com

ماذا حدث فى الغار .. ؟

نحن متابعون فى هذه الدراسة لحديث البخارى الذى يرويه بسنده عن هشام بن عروة عن أبيه عروة عن خالته عائشة أم المؤمنين ، الذى أتينا بنصه فى الحديث السابق مقسماً إلى فقرات ؛ وذلك لما تبين لنا من اتساقه وتكامله وبعده عن الإضافات والتصورات التى دخلت على السيرة النبوية على طول الزمن ، ومسَّ بعضها جوهر البعثة المحمدية .

كما رأينا فى حديث عبد الله بن الزبير الذى أورده أبو محمد عبد الملك بن هشام دون تحقيق ولا تدقيق وقال فيه : إن أول لقاء لمحمد ﷺ مع الوحى كان فى النوم ، ورأينا كيف أخذ هذا الخبر محمد حسين هيكل وأورده فى « حياة محمد » لا بلفظه الذى رواه ابن هشام ، بل مترجماً إياه عن أميل درمنجم .

ورأينا كيف أن هذا القول بأن لقاء محمد ﷺ أول مرة كان رؤيا رآها وهو نائم ـ يضيع العبرة الكبرى من المبعث المحمدى؛ لأن هذه العبرة تكمن فى أن هذا اللقاء وقع فى يقظة محمد ووعيه الكامل ، وبهذا وحده يكون المشهد حقيقة ؛ لأن الأحلام

والرؤى ليست حقائق ، إنما هى أضغاث يحس بها النائم ، وتتلاشى بعد صحوه ، أما المشاهدة الواعية فهى الحقيقة التى يعول عليها ، وهى سندنا فى القول بأن محمدًا مرّ خلال مراحل انتقاله من البشرية إلى النبوة وهو صاح واع لكل ما يمرّ به ، فعرف الخوف والشك والقلق واليأس ، ثم الأمل والتصديق والإيمان بصحة ما رآه ومعناه ومغزاه ، وانتقل بذلك ببشريته كاملة إلى نبوته فرسالته ، فكان كما جاء فى القرآن الكريم على لسان محمد فى سورة الإسراء : ﴿ **سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً** ﴾ (الإسراء : ٩٣) ، فكانت بشريته أسوة وقدوة للناس فى شئون المعاش ، وكانت نبوته ورسالته هديا للناس فى شئون المعاش والمعاد .

ونواصل الآن الدراسة متابعين حديث أم المؤمنين عائشة الذى أسلفنا نصه .

تقول الفقرة الثالثة من ذلك الحديث :

« حتى جاء الحق وهو فى غار حراء » فجاءه الملك فقال : اقرأ

قال : قلت : ما أنا بقارئ

قال : فأخذنى فغطّنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ،

قال : اقرأ .

فقلت : ما أنا بقارئ

فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى

فقال : اقرأ

فقلت : ما أنا بقارئ

فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى

فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ ﴾ (العلق : ١ ـ ٤) .

هذا ـ فى أدق صورة وأوجزها ـ وصف أعظم مشهد فى تاريخ البشر ، إنه مشهد ميلاد محمد النبى ، مشهد ميلاد الإسلام .

وقد سبق أن ذكرنا أن هذا هو الوصف الوحيد فى التاريخ لنزول الوحى الإلهى على إنسان من البشر ، وانتقاله بذلك إلى مرتبة النبوة ، وهو من هذه الناحية مشهد فريد فى بابه فى تاريخ البشر ؛ ومن ثم فهو جدير بنا أن ندرس كل لفظ أو ظاهرة فيه على مهل .

والمشهد ـ كما قلنا ـ لابدّ قد حدث قبيل المغيب ، بين العصر ومغيب الشمس كما حققنا فيما سلف ، وحدث ذلك فى يوم كان الرسول فى الغار وحده ليس معه أهله ، وفى ذلك اليوم كان المفروض أن يعود محمد فى نهايته إلى بيته .

ولكل حقيقة من هذه معناها ، فلم يكن من الممكن أن يقع هذا المشهد لمحمد ومعه أهله ، أى : زوجته أم المؤمنين خديجة ؛ لأنه كان لابد أن يشهد هذا اللقاء وهو وحده حتى يعانى ما عانى ، وهذه المعاناة فى ذاتها جزء من المعجزة المحمدية ؛ لأنها محنة مرّ بها محمد وهو فى كامل إنسانيته ، وهو هنا يختلف عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ الذى نشأ وكبر وهو واع إلى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ معه ، وعندما ألقى فى النار كان يعرف أن النار ستكون برداً وسلاماً عليه .

ويختلف عن موسى الذى رعته العناية الإلهية قبل مولده وبعد مولده، فلما شبّ وضرب فى مداخل الشباب كان يعرف أنه نبى ، وكان يعرف عندما لقى السحرة فى مجلس فرعون أنه سيأتى بمعجزة تبطل سحرهم مهما بلغ .

ويختلف عن عيسى بن مريم الذى كلّم الناس وهو فى المهد صبيّا ، وقد سمع محمد صوت الملك يقول له : اقرأ ، دون أن يرى

شـيئـاً ، وقد أخـذ بهـذا الصوت الذى جـاءه من حـيث لا يعلم ، ولكنه سمعـه واعياً كل الوعى : فقال : ما أقـرأ ؟ أى : ماذا اقرأ؟ فأخذه الملك فغطّه حتى بلغ منه الجهد .

ولفظ « غط » هنا يستوقف النظر !

إن حسين هيكل يترجمـه بقوله : فأحس كأن الملك يخنقه ثم يرسله ، وهو كـلام لا معنى له ؛ إذ كيف يحـس الإنسان أن الملك يخنقه ، وهل كان محمد يعرف أن صاحب هذا الصوت ملك ؟

فى لسـان العرب تـقرأ :غطّه فى الماء يـغطه ويغطه (بضم الغين وفـتحـها) غطا : غطسـه وغمسـه ومقله وغـوصه فـيه (بتشـديد الواو وفتـحها) وانغط فى الماء انغطـاطاً : إذا انقمس فيه (بالقاف) . وفى حديث الوحى : فـأخذنى جبريل فغطّنى ، الغطّ : العصر الشديد والكبس ، ومنه الغطّ فى الماء : الغوص . قيل : إنما غطه ليختبره هل يقول من تلقاء نفسه شيئاً .

وفى صورة أخـرى من هذا الخبـر نقرأ « فـغَتّنى به حـتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى » .

وفى تفـسيـر « غتّ » نقـرأ فى لسـان العرب : وفى حـديث المبعث : فـأخذنى جـبريل فـغتّنى ، والغتّ والغطّ سـواء . كأنه أراد : عصرنى عصـراً شديداً حتى وجدت منه المشقـة ، كما تجد

من يغمس فى الماء (مبنى للمجهول) قهراً ، وغتّه : خنقه ، يغته غتّا : عصر حلقه نفساً (بفتح النون والفاء) أو نفسين أو أكثر من ذلك ، وغته فى الماء يغته غتّا : غطسه .

أى أن غطّنى له معنى غتّنى .

ومن الصعب أن نتصور أن الملك ـ ونحن لا نعرف إلى الآن ، حسب حديث البخارى إن كان هذا الملك جبريل أو غيره ـ قد أخذ محمداً وعصره حتى شعر بالاختناق كأنه يغطس فى الماء . حتى يظن أنه الموت ، كما جاء فى روايات أخرى ، فيكون الذى حدث هو شعور محمد بروع شديد ، أحس معه كأنه يختنق . وشيئاً فشيئاً زايله الروع وانطلق نفسه (بفتح النون والفاء) وهذا هو المراد بقوله : ثم أرسلنى .

وبعد أن هدأ روعه ﷺ بعض الشىء ، قال : ما أنا بقارئ والقراءة فى اللغة : هى قراءة الشىء المكتوب ، وهى كذلك تلاوة الشىء المحفوظ ، أو ترديد كلام يلقى عليك .وعلى أى هذه المعانى شئنا يكون قول محمد مطابقاً للموقف ، فقد كان محمد ﷺ أميّا لا يقرأ ، أى أنه لم يكن بقارئ ، وإذا كان المراد هو الترديد فيكون سؤاله ﷺ مطابقاً للموقف كذلك ؛ لأن كل ما أمره به الصوت : اقرأ ، وتكون « ما » هنا للاستفهام لا للنفى .

ثم يعود الصوت فيقول : اقرأ

ويعود الروع فيستولى على محمد ، ويحس وكأنه يختنق، أو يظن كأنه الموت ، وهذا معقول فى حالة الخوف الشديد .

ويكون النداءان الأولان تنبيهاً لمحمد حتى يعى ما سيلقى إليه فى النداء الثالث ، وفى النداء الثالث يكون محمد قد ثبت فواده أكثر مما كان ، فيتلو عليه الصوت الآيات الخمس الأولى من سورة العلق ، وهى أول ما أنزل من القرآن باتفاق معظم الآراء ، والبخارى يكتفى بذكر الآيات الأربع الأولى حتى ﴿ **الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ** ﴾ وغيره يضيف الآية الخامسة ﴿ **عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمَ يَعْلَمْ** ﴾ ؛ لأنها والآيات الأربع الأولى السابقة عليها تعتبر وحدة متكاملة من حيث المعنى ، وبعدها تنتقل السورة إلى معنى آخر يتعلق بفترة أخرى جاءت بعد ذلك .

وقد استعملت هنا لفظ « الصوت » ، والمراد به الملك ، ولكن محمداً لم يعرف فى هذه اللحظة أن الذى خاطبه ملك ، فآثرت أن أستعمل هذا اللفظ حتى يجىء لفظ الملك فى مكانه .

ونلاحظ أن الحديث لم يذكر أن محمداً ردّد هذه الآيات بعد الصوت ، إنما يكتفى بقوله : فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده . أى أن هذه الآيات نقشت فى صدره .

ومن الطبيعى أن يراع محمد روعاً شديداً من هذا الذى حدث له ، ولابدّ أنه لبث فى الغار بعض الوقت بعد هذا الذى سمع حتى استجمع نفسه ، أو حتى طال الصمت بعد ذلك وأحس محمد أن الصوت لن يقول شيئاً بعد ذلك ؛ ولهذا تأخر فى الخروج من الغار ، ولكن لابد أنه بعد أن خرج منه أسرع إلى بيته « يرجف فؤاده » .

هذا على وجه التحقيق ما حدث فى أصيل ذلك اليوم ، ومحمد وحده فى الغار ، والدنيا من حوله صمت شامل .

وهذا النص الذى أورده البخارى صادق كل الصدق ، كل ما وقع بعده يؤيد صدقه كما سنرى ، وإذا كان لابدّ أن ينزل وحى على بشر فلا يمكن إلا أن يكون على هذه الصورة ، ولا يمكن أن يكون إحساس محمد إلا هذا الذى قاله ورواه البخارى ، ولا يمكن أن يحدث ما ذكره غير البخارى من الرواة من أن رسول الله كان قبل مشهد الغار يرى ويسمع ، أى : يرى الملاك فى السماء ثم يختفى ، ويسمع صوتاً يخاطبه ويتلفت فلا يرى شيئاً . ومحمد بن إسحاق مخطئ عندما روى عن إسناد ضعيف أن محمداً قبل مشهد الغار كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ، ويفضى إلى شعاب مكة وبطون أوديتها، فلا يمرّ بحجر ولا شجر إلا قال : « السلام عليك يا رسول الله »

فيلتفت حوله عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجرة والحجارة، فمكث ﷺ كذلك يرى ويسمع ما شاء الله له أن يمكث، ثم جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء فى شهر رمضان ، وهذا كلام لا يصح قبل مشهد الغار ، وربما يكون قد حدث بعد ذلك بزمن ، وسنعود إليه فى حينه إن شاء الله ، وإذا كان ذلك قد وقع قبل مشهد الغار فلماذا ريع محمد هذا الروع كله ؟

ثم إن هذا الخبر يقول : إن محمداً مكث كذلك (يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث) فأما الذى كان يسمعه فقد عرفناه ، وبقى هذا الذى يقال : إنه كان يراه ، فماذا هو ؟

إن مثل هذه الأخبار أضَرَّتْ بالسيرة ضرراً بليغاً ، فقد فسرها بعض أعداء الإسلام تفسيرات منكرة ، ولكنهم لا يسألون وحدهم عن هذا الكلام الذى ألقى على علاَّته ، إنما رواتنا أيضاً مسئولون ، وما دام حديث البخارى هذا قائماً بين أيدينا بهذه الأصالة الواضحة فلا معنى للتزيد وإضافة ما لا يصحّ أو يجوز فى حق رسول الله ومبعثه الذى غيّر تاريخ البشر .

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما يرد فى « السيرة الحلبية » من أن من يسمى بالإمام العدل سليمان التيمى ذكر فى (سيره) من أن

السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ عندما قص عليها محمد خبر الغار ركبت إلى بحيرا الراهب فى الشام ، فهذا الخبر غير المعقول جرّ علينا مصائب بلا نهاية ، فقد اعتمد عليه مستشرقون موتورون من أمثال آلويس شبرنجر Alois Sprenger وهنرى لامنس Henari lammens فى القول بأن بحيرا الراهب هذا هو الذى علّم محمداً معظم ما قال ، وبحيرا ـ بفتح الباء وكسر الحاء ـ ليس اسماً بل صفة ، فمعناه الراهب أو العالم ، ولم يلق رسول الله بعد البعثة راهباً ولا حبراً ، إنما كان ذلك قبل المبعث بسنوات طويلة ، وكان محمد فى الثامنة أو التاسعة من عمره عندما خرج إلى الشام أول مرة مع عمه أبى طالب ، ولم يكن اسم الراهب بحيرا بل سرجيوس ، وخبره كله مشكوك فيه ، ولكن تأمّل الضرر الذى لحق بالسيرة نتيجة لقلة إدراك مثل هذه الرواية ، وعدم تحرز أصحاب السيرة الحلبية ، وهى على واسع شهرتها لا يعتمد عليها إلا بعد تمحيص بالغ .

وننتقل إلى الفقرتين الرابعة والخامسة من حديث البخارى (فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زمّلونى ، زمّلونى . فزملوه حتى ذهب عنه الروع .

فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى ، فقالت خديجة : كلاَّ ، والله ما يخزيك الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ - بفتح الكاف - وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق) .

وهذا السياق فى رواية الخبر أقرب ما لدينا إلى طبيعة ما حدث ؛ فإن محمداً بعد أن وقع له ما وقع ولبث فى الغار بريهة استجمع فيها نفسه - عاد مسرعاً إلى بيته وهو يرجف ، وقد برد جسمه كله بدليل أنه قال : « زملونى » فلما زملوه بالغطاء هدأت نفسه وزال روعه ، ثم قص على خديجة ما وقع له .

ولا يتفق مع هذا السياق الأصيل ما يرد فى الحديث الذى يرويه ابن هشام مسنداً إلى عبد الله بن الزبير ، ونقرأ فيه «فخرجت (من الغار) حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، قال : فرفعت رأسى أنظر إلى السماء فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل » وهذا كلام لا يقبل ؛ لأنه لو كان حدث لزال روع محمد عندما خاطبه الصوت فى الغار وعلم حقيقة الأمر ، فهذا ملك من السماء يقول له : أنت رسول الله وأنا جبريل ، ففيم الروع ورجف الفؤاد إذن !

ولكن الصحيح فى مثل هذه الحالة أن يراع محمد ويخشى على نفسه بعد أن وقع له ما وقع فى الغار ، فقد أثر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ولم يكن من خلق الله أحدٌ أبغض إلىّ من شاعر أو مجنون ، كنت لا أطيق أن أنظر إليهما ، قال : قلت : إن الأبعد ـ يعنى نفسه ـ لشاعر أو مجنون ، لا تحدّث بها عنى قريش أبداً ، لأعمدنّ إلى حالق من الجبل فلأطرحنّ نفسى منه ، فلأقتلنها فلأستريحن .. » وهذا الخبر قلق وليس هذا موضعه ، ولكن الذى يهمنا فيه أن محمداً خشى على نفسه أن يكون شاعرًا أو مجنونًا ، فأما الشاعر فليس المقصود به الشاعر الذى يقول الكلام الجميل، إنما المخرف الذى يهذى ، وأما المجنون فمن الطبيعى أن ينفر منه محمد ؛ لأن منظره كان بالفعل رهيباً مخيفاً

ويستوقف انتباهنا فى الفقرة الخامسة أن خديجة ـ رضى الله عنها ـ لم تخف ولم تروع ، أو على الأقل لم يبد عليها روع ولا خوف لعظيم ثقتها فى زوجها محمد ﷺ فقد عرفته دائماً رجلاً راجح العقل ، فاضل النفس ، حسن العشرة ، جميل الشمائل ، ومثل هذا الرجل لا يخزيه الله أبداً ، وقولها هذا يدل على أنها بحكم العشرة والإخلاص للزوج ومشاركته فى الإحساس ، كانت حنيفة هى الأخرى تعرف أن للكون خالقاً

واحداً عظيماً ، وهذا الخالق يتجه إليه زوجها بقلبه باحثاً عنه؛ لا يمكن أن يصل إليه الجن ، وهذا هو الذى كان محمد يخافه عندما قال : إنه يخاف أن يكون قد أصبح شاعراً أو مجنوناً ، والمجنون هو الذى تسيطر عليه الجن فى رأى عرب الجاهلية .

ومن هنا فقد أخذت تطمئنه على نفسه وتهدئ من روعه، وكلامها هنا له دلالة كبرى ؛ فقد قالت له : كلاّ والله لا يخزيك الله أبداً ؛ إنك تصل الرحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر .

ومعنى ذلك أن محمداً كان بعد زواجه من خديجة رجلاً ذا مال ينفق منه فيما ذكرت خديجة ، ولو كان ينفق ذلك كله من مالها كما يتصور بعض الناس من أن محمداً كان يعيش بعد زواجه من خديجة على مالها لما قالت خديجة له ذلك ، وأين إذن فضله لو كان يقوم بذلك كله من مال زوجته ، وفى هذه الحالة كان من الممكن أن تقول له على سبيل التلطف : إننا نصل الرحم، ونحمل الكل ، ونكسب المعدوم ، ونقرى الضيف ، ونعين على نوائب الدهر ، فأما وقد قالت ذلك مخاطبة إياه بشخصه فلا شك فى أن ذلك كله كان من ماله لا من مال خديجة .

وهذا هو الحق الذى يغيب عن الكثيرين من مؤرخينا ، لقد

كان محمد قبل زواجه من خديجة وبعده رجلاً ميسور الحال ، ورجلاً تاجراً عارفاً بشئون التجارة فقد ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية « أن عمرو بن أسد عم خديجة عندما بلغه أن محمدًا يخطب خديجة قال : هذا هو الفحل الذى لا يجدع أنفه » ، وقال البلاذرى : إن خديجة عندما وجهت محمداً ﷺ بمالها إلى الشام عرفت خديجة البركة والنماء فى مالها على يده ، فإذا كانت هذه ثمرة عمله فى مال زوجه فلا شك أنه كذلك كان ينمّى ماله وينفق منه فى وجوه الخير .

وملاحظة أخرى عن فضل هذه السيدة الجليلة التى وقفت فى هذه المناسبة موقفاً يصعب أن تقفه غيرها ، فقد كانت هى صاحبة فكرة الاتجاه إلى ورقة بن نوفل لعرض الأمر عليه لترى ما يقول ، حقّاً إن ورقة كان ابن عمها ، ولكنها لابد كانت عالمة بأن هذا الرجل هو أفضل من يُسأل فى مثل هذا الأمر العظيم ، وبالفعل لم يكن هناك اختيار أصلح من ذلك كما سنرى، ولابد كذلك أن خديجة كانت تعرف أن ورقة كان إلى جانب نصرانيته غير الواضحة حنيفاً يبحث عن ملة إبراهيم أو الدين القديم كما كان يقال ، وهذا يؤيد ما قلناه من أن خديجة كانت حنيفية ، مثلها فى ذلك مثل زوجها العظيم ، وهذا هو الذى

ثبت نفسها وهيَّأ لها الظروف لتقوم بدور من أجَلِّ ما قام به أحد المسلمين فى سبيل نصرة الإسلام .

إلى هنا نقف بهذا الفصل من دراستنا للتحول العظيم فى حياة نبينا ـ صلوات الله عليه ـ نقف به هنا بعد مشهد المبعث الذى أصبح به محمد نبيًا ، ولكن الأمر لم يتضح له بعد ، فقد كان فى أشد حالات الحيرة والقلق ، وسنرى أن ورقة سيطمئن الرسول على حاله ويوضح له حقيقة ما يمرّ به من تحوّل هائل، ولكنه فى نفس الوقت لم يلبث أن زادت مخاوفه ؛ لأنه إذا كان قد كشف له عن حقيقة الأمر وقال له : إن ما مرّ به مقدمة رسالة إلهية كبرى فلماذا تأخر عليه الوحى بعد ذلك ؟ إننا ندخل الآن فيما يسميه أصحاب السيرة بالفترة أو فترة الوحى ، وكانت من أقسى وأشد ما عرف محمد فى حياته ، فقد تزايد قلقه وزادت مخاوفه بسبب تأخر الوحى ، وإذا كنا نعرف أن اصطفاء الله لمحمد ﷺ لحمل الرسالة الكبرى كان نعمة من الله عليه وبركة، فإننا لاننسى ما عاناه فى فترة الانتقال هذه من قلق وخوف وحيرة ، حتى لقد همّ بأن يلقى بنفسه من شاهق الجبال ليخلص مما هو فيه .

* * *

obeikandl.com

﴿ يا أيها المدثر * قم فأنذر ﴾

(المدثر : ١ ، ٢)

وقفنا فى الفصل الثالث من هذه الفصول التى نكتبها عن مبعث الرسول ﷺ عند حسن استقبال خديجة أم المؤمنين ـ رضوان الله عليها ـ لخبر نزول الوحى على محمد ، وما أظهرت من الثقة فى زوجها محمد وإيمانها الكامل بكل كلمة قالها ، واجتهادها فى تثبيت فؤاده وإدخال الطمأنينة على نفسه فى هذا الظرف الذى كان من الطبيعى فيه أن يطيش عقل أية امرأة أخرى لو جاءها زوجها بمثل هذا الخبر ، وغريب من مؤرخينا القدامى أنهم لم يقدروا لخديجة هذا الموقف العظيم ، وأغرب منه أن بعضهم يتساءل : من أسلم أولاً : خديجة أم أبو بكر ؟

ويجيب الكثيرون أن أبا بكر أول من أسلم ، مع أن خديجة أسلمت منذ الوهلة الأولى وآمنت بما جاء به محمد ، وسارت معه فى الطريق العسير خطوة خطوة حتى عرف وعرفت أن هذا الذى وقع له إنما هو النبوة ثم الرسالة ، وغريب من الدكتور هيكل أن يقول فى هذا الموقف : « نام محمد ، وحدقت فيه

خديجة، وقد امتلأ قلبها إشفاقاً وأملاً لهذا الذى سمعت منه ، فلما رأته استغرق فى نوم مطمئن هادئ ، تركته وخرجت تقلب هذا الذى هز قلبها وأثار هواجسها ، وتفكر فى الغد ترجوه خيرا، وترجو أن يكون زوجها نبى هذه الأمة العربية التى غرقت فى الضلال » إلى آخر هذا الكلام الإنشائى الجميل الذى لا يؤيده أى سند من التاريخ ، وإذا كان محمد نفسه لم يخطر بباله إلى ذلك الحين أن يكون نبى هذه الأمة فكيف يخطر هذا الأمر على بال خديجة ؟ ثم من أين له أن هذا الأمر أثار هواجسها ؟ وهل حديثها معه كان حديث سيدة انتابتها الهواجس ؟

نقول هذا لأننا ينبغى أن نكون دقيقين جدّا فى كل لفظ نستخدمه فى تناولنا لسيرة المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ ومثل هذه العبارات الإنشائية من شأنها أن تحجب الحقيقة التاريخية، وتحول بيننا وبين فهم حقائق السيرة المحمدية ، وهذه الحقائق فى ذاتها أبلغ وأجمل من أسلوب أى أديب ، فما بالك والأسلوب هنا نقل حَرْفِيٌّ تقريباً عما قاله مستشرق فرنسى هو أميل درمنجم ؟ !

وقد قرأت فى الجزء الثانى من « تاريخ الإسلام » للحافظ المؤرخ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى (ت ٧٤٨هـ /١٣٤٧م)

خبراً يقول : «وقال موسى بن عقبة فى مغازيه : كان ﷺ فيما بلغنا أول ما رأى أن الله أراه رؤيا فى المنام ، فشق ذلك عليه فذكرها لخديجة ، فعصمها الله وشرح صدرها بالتصديق .

فقالت : أبشر ! ثم أخبرها أنه رأى بطنه يشق ثم طهر وغسل ، ثم أعيد كما كان . قالت : هذا والله خير ، فأبشر ! » . وهذه العبارة من موسى بن عقبة : « فعصمها الله وشرح صدرها » تؤيد ما قلناه من أن الله ـ سبحانه ـ أيد قلب خديجة ـ رضى الله عنها ـ بقوة من عنده ، وشرح صدرها ؛ لكى تقوى على مواجهة ما سيمر به زوجها الكريم من تجربة قاسية ومحنة شديدة فى طريقه إلى النبوة فالرسالة .

ولقد تصرفت خديجة فى هذا الموقف أحسن وأعقل تصرف يمكن أن يتصرف به إنسان ، ولو سيدة أخرى مكانها لكان أحسن ما تفعله أمراً من اثنين : إما أن تكتم الخبر وتدع نفسها وزوجها فى حيرة وخوف . وإما أن تذهب إلى عمها مثلاً : عمرو ابن أسد بن عبد العزى ، وهو الذى حضر زواجها من محمد ، وتلقى إليه بالخبر ، وتعلن الجزع والحيرة والخوف ، وتطلب العون .

ولكن خديجة لم تفعل شيئاً من ذلك ، بل حزمت أمرها ،

وذهبت إلى الرجل الوحيد الذى كان من الممكن أن يعينها فى هذا الموقف ، وهو ورقة بن نوفل .

فلماذا ورقة بالذات ؟

لقد أوردنا فيما سلف بعض الخبر عن ورقة ، وقلنا : إنه كان ابن عم خديجة ، فأبوه نوفل كان أخاً لخويلد بن أسد بن عبد العزى والد خديجة . وكان أخا لعمرو الذى زوجها من محمد ، وقد عرفنا أن ورقة كان من الباحثين عن « الدين القديم» وهو ملة إبراهيم ، وهى الحنيفية ، وقلنا : إن الكثيرين من المؤرخين يقولون : إنه كان قد تنصر ، وشككنا فى صحة هذا القول .

وفى حديث موسى بن عقبة ، وهو من أعاظم شيوخ السيرة الأوائل عن النفر الأربعة الذين كانوا يبحثون عن حقيقة ملة إبراهيم ، وهم ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان ابن الحويرث ، وزيد بن عمرو بن نفيل ـ نجد أنه يعطى زيداً أضعاف ما يعطى ورقة من الأهمية ؛ فزيد عنده كان باحثاً مجتهداً عن الحنيفية ، حتى لقد ساح فى الأرض فى طلبها ، وفى سياق كلامه نقرأ أن نفيلاً والد زيد وَجَدَّ سعيد الصحابى قال : « خرج أبى (زيد) وورقة بن نوفل يطلبان الدين حتى

مرا بالشـام ، أما ورقة فقـد تنصر ، وأما زيد فـقيل له : إن الذى تطلبه أمامك ، فانطلق حـتى أتى الموصل » ومعنى ذلك أن ورقة حسم الأمـر وتنصر ، وأما زيد بن عـمرو بن نفيل فـهو الذى لم يقتنع بالنصرانية كما وجد عليها أهل الشام ، فمضى يطلبها فى الموصل . وزيد عند أهل السيرة أكـبر مقاماً من ورقـة ؛ لأنه كما يقول ابن حزم : « رفض الأوثان فى الجاهلية ، والتزم الحنيفية دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأخبر رسول الله ﷺ أنه يبعث يوم القـيامـة أمة وحـده » وابنه سعـيد كـان على شاكلتـه ، ثم إنه تربطه برسول الله رابطة نـسب من ناحية أمـه ، فكان لهذا أولى أن يسأل من ورقة الـذى يقال إنه قد تنصر ، وإذا كـان قد تنصر فعلاً فـهو آخر من يسأل فى أمر كـهذا الذى كان يعانيه مـحمد ؛ لأن النصارى جمـيعاً كانوا يقولون إذ ذاك : إن مـجىء عيسى ـ عليه السلام ـ هو تحـقيق البشارة التى تحدث عنها كلهـا أنبياء بنى إسرائيل فى العهد القديم ، وليس يسأل نصرانى مثل ورقة فى أمر نبوءة أو بشارة تأتى بعد عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ ولكن خديجة ـ بعصمـة الله إياها وانشراح صدرها وفطنتها ـ اتجهت إلى ورقة بن نوفل دون سواه ؛ لأنها كانت تعرف أنه لم يكن نصرانيّـا ولا يهوديًا إنما كان باحـثاً عن ملة إبراهيم ، نعم إنه كان يقرأ كل ما يقع تحـت يده من صحف الإنجيل والتوراة .

وكان يجيد العبرانية ، ولكنه لم يكن نصرانيّا ، وكان فى ذلك الوقت رجلاً مسنا قد كف بصره ، فهو بعيد عن الغيرة والحسد، ثم إنه كان رجلاً فاضل النفس ، بعيداً عن خصال الجاهلية ، وكان هو الذى نصح خديجة بأن تتزوج محمداً عندما علم بما كان من أمر إعجاب خديجة به وميلها إلى الزواج منه ، ثم إن كتب السيرة تقول : إن عبد المطلب فقد ـ ذات مرة ـ محمداً وهو صبى فى حجره ، وقلق عليه ، فكان الذى وجده ورده إلى جده ورقة . ومن هنا كان اختيار خديجة إياه هو الاختيار الأسلم من كل وجه .

ونعود إلى حديث هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير عن عائشة ـ رضى الله عنها ، وهو الذى نلتزمه هنا ـ فنجد أن الفقرة السادسة منه تقول : « فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له : يابن عم ، اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة : يابن أخى ؛ ماذا ترى ؟

فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى .

يا ليتنى أكون فيها جذعاً ! ليتنى أكون حيّا إذ يخرجك قومك !

فقال رسول الله ﷺ : أو مُخْرِجِيَّ هم ؟

قال : نعم ! لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

ثم لم ينشب ورقة أن توفى . وفتر الوحى »

والجذع : هو الشاب القوى العفى .

وإذن فقد كان ورقة هو أول من طمأن محمداً إلى أن الذى أمره بالقراءة ثم قرأ عليه لم يكن شيطاناً أو جنّا أو روحاً شريرة ، إنما هو الناموس الذى أنزل على موسى ، وما دام قد أنزل على موسى فهو خير إن شاء الله .

فما هو هذا الناموس ؟

من بين المعانى الكثيرة التى يذكرها ابن منظور فى لسان العرب لهذا اللفظ : الناموس ، وعاء العلم . والناموس : جبريل.. وأهل الكتاب يسمون جبريل ـ عليه السلام ـ : الناموس ، ثم يروى ابن منظور حديث ذهاب خديجة مع محمد

ﷺ إلى ورقة مع محمد ، ولكنه يُورِدُ إجابة أخرى ترد فى صور من الحديث تختلف عما ذكرنا ، وهى ترد فى معظم كتب السيرة إلى جانب روايتنا ، وهى : إن كان ما تقولين حقًا ، فإنه ليأتيه الناموس الذى كان يأتى موسى ـ عليه السلام ـ وفى رواية أخرى : إنه ليأتيه الناموس الأكبر .

وإذا كان ورقة نصرانيًا فلماذا قال : إن هذا هو الناموس الذى يأتى موسى ؟

وفى رواية أخرى ـ ضعيفة ـ لذلك الحديث نجد ورقة يقول: « قدوس! والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتينى ياخديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت . »

وموضع الضعف فى هذه الرواية الثانية أنها تفترض أن محمداً ﷺ لم يكن مع خديجة عندما ذهبت إلى ورقة ، وذلك مستبعد ، فما كان محمد ليقعد فى بيته ويترك زوجه تستجلى له حقيقة الأمر مع شديد تطلعه إلى هذه الحقيقة ،

ومن الواضح أن « الناموس » الذى يرد ذكره فى كلام ورقة لا يمكن أن يكون معناه جبريل أو وعاء العلم . وواضح كذلك أن ورقة لم يقل لفظ «قدوس » الذى يرد فى الرواية الثانية للخبر.

وهنا موضع سؤال : إذا كان ورقة نصرانيًا ، فلماذا ذكر الناموس الذى أنزل على موسى ولم يشر إلى شىء أنزل على عيسى ؟

وقد حاولَ الشيخ أبو زهرة ـ رحمه الله ـ وهو من أساتذة تاريخ الأديان وله فيه كتابان ، واحد يسمى « محاضرات فى النصرانية » والثانى يسمى «مقارنات الأديان » حاول أن يجيب عن هذا السؤال فقال : إن الجواب على ذلك أن التوراة كانت فيها شريعة قائمة عمل بها النبيون من بعد موسى ـ عليه السلام ـ وجاء عيسى لإحيائها بعد أن أهمل اليهود تعاليمها ، ولم يطبقوها لغلظ قلوبهم ، فجاء عيسى لإعلان حقائقها ، وروى عنه أنه قال : « جئت لإحياء الناموس » ولقد جاء النص فى كتب النصارى أن يؤخذ بشريعة التوراة ما لم يجئ نص فى الإنجيل يخالفها .

وهذا كلام فيه ظل من الحقيقة ، ولكنه يدل فى نفس الوقت على معرفة مباشرة قليلة باليهودية والنصرانية ، وهذا طبيعى بالنسبة لنطاق دراسات الشيخ أبى زهرة ، فإن معرفة الأديان ـ وخاصة اليهودية والنصرانية ـ فضلاً عن مقارنة الأديان بعضها ببعض ـ لا يستقيم إلا باطلاع واسع على الأصول العبرانية والسريانية أو على الأقل بالدراسات المترامية المدى التى ألفت فى الغرب فى تاريخ الأديان .

فإن لفظ « النامـوس » ليس عبرانيّـا ، ولكنه يونانى ، ومن ثم فـهو لا يعـنى جبـريل أو التـوراة ، وإنما هو من لفظ Nmos اليـونانى، ومعنـاه القانون أو الكلام الموحـى من الله للأنبيـاء ، واستعمـال ورقة له معقول ، فقد كـان الرجل يقرأ كل ما يقع فى يده من صـحف الكتب الـدينيـة ، دون أن يـفـرق بين مـا هو نصرانى منهـا وما هو يهودى ، وكان اللفظ (نومـوس) شائع الاستعـمال ، وخاصة فى كـتب الغنوصيين ، وهم فرقـة دينية ذاعت فى العصور المسـيحية الأولى ، وكـانت مزاجاً من الأديان السماوية وعقائد الوثنية ، وقد قضت المسيحية على الغنوصية، وخـاصـة بعد أن حـدد بولس المسـيـحـيـة بالشكل الذى رآه ، وفصلها عن اليهودية وجعلها ديانة قائمة بذاتها تتلخص فى أن مـجىء عيـسى تحقـيق للبشـريات التى نادى بهـا أنبيـاء بنى إسـرائيل فيـما كـتبـوا بعد الـتوراة ، وهذه الكتـابات هى التى جـمعت بعـد ذلك فى الكتب الخـمسـة الأولى من العـهد القـديم المعروفة بالبنتاتويخ .

وقد أخـذ ورقة لفظ الناموس عـن الأدب الغنوصى ، وعرف أن المراد به القانون الإلهى أو الشريعة التى أنزلت على موسى ، وكان ينبـغى أن يؤيدها الإنجيل الذى أنزل على عـيسى ، ولكن نص الإنجـيل (ومعناه البـشارة) اخـتـفى ، وأطلق اللفظ على

ذكريات بعض الحواريين عن بعض ما قال عيسى وما وقع له ، وهذه هى الأناجيل المعروفة اليوم ما بين معترف به من الكنائس وغير معترف به ، وغير المعترف به كثير جدًا ، ويطلق عليها جملة لفظ « أبو كريفا » أى : الزيوف أو الكتب الزائفة .

ومن هنا فقد أصاب ورقة فى قوله : إن هذا هو الناموس الذى أنزل على موسى ، أى أن ما سمعه محمد ﷺ هو بداية لمثل الشريعة التى أنزلت على موسى ـ عليه السلام ـ وقد أدرك ذلك محمد ﷺ إدراكاً تامًا ، واطمأنت نفسه ؛ فقد عرف الآن أن ما سمعه بعيد جدًا عن أن يكون شيئاً من الشياطين أو الجن ، إنما هو شىء سماوى .

ولكن رواتنا لم يدركوا ذلك ؛ ولذلك اختلط عليهم معنى الناموس ، وقالوا : إنه جبريل ، مع أن ورقة لم يقل ـ فى حديث البخارى ـ إن هذا الناموس هو جبريل ، وكل ما تقوله أوثق النصوص هو ما ذكره محمد بن إسحاق ورواه الطبرى ، قال : «فسهل عليه ذلك بعض ما هو فيه من الهم » .

وتضيف هذه الرواية عبارة قصيرة يفهم منها أن ورقة لقى خديجة بعد ذلك وأعاد عليها تفسيره لما قص عليه محمد فقال لها : فقولى له فليثبت . وهذه العبارة تشير إلى إسراع محمد

بالانصراف إلى بيته بعد سماع الصوت أول مرة فى غار حراء ، وربما كان معناها فليثبت ولا يرع إذا سمع الصوت مرة أخرى . فلن يحدث له إلا خير .

وقد نفعت هذه الكلمات محمداً ، فاطمأن قلبه ، وعرف أن عليه فى المرة القادمة أن يثبت ؛ ولهذا كان محمد ﷺ يثنى على ورقة ، فقد روى الترمذى حديثاً حسن الإسناد ينتهى عند أم المؤمنين عائشة قال : سئل النبى عن ورقة . فقالت له خديجة: إنه يا رسول الله كان صدقك ، وإنه مات قبل أن تظهر . فقال : « رأيته في المنام عليه ثياب بيض ، ولو كان من أهل النار لكان عليه لباس غير ذلك » وجاء من مراسيل عروة أن رسول الله ﷺ قال : « رأيت لورقة جنة أو جنتين » والمراسيل هى الأحاديث المرسلة ، أى التى يرويها التابعى عن رسول الله ﷺ ولم يذكر فيها الصحابى ، والجنة هى البستان .

ولكن ورقة إذا كان قد طمأن محمداً ﷺ بكلامه ، فإنه كان سبباً فى قلقه بعد قليل ؛ لأنه توقع أن يأتيه الوحى بعد ذلك ليثبت ويسمع منه ، ولكن الوحى تأخر ، وطال تأخره فترة يختلف فى تقديرها الرواة ما بين ثلاثة أيام وثلاث سنين ، وتقديرها بثلاثة أيام غير مقبول ، لأن الرسول قلق قلقاً شديداً

لفتـرة الوحى ، أى : فتوره ، أى : عدم عـودته ، ولا يصح كذلك القـول بأن الفتـرة كانت ثلاث سـنوات ، فمـا كان الله سـبحـانه ليجعل الفارق بين الوحى الأول والثانى يطول هذا الزمن كله .

ولدينا أقوال كثـيرة عما حدث لمحمد خـلال هذه الفترة التى تراوحت مـا بين أسبوعـين وثلاثة أو شـهر على الأكثـر ، ولكن أقـرب الروايات إلى سيـاق ما نروى حـديث رواه البخـارى فى الصحيح ، وأحمـد بن حنبل فى مسنده ، يقول : « وقال الزهرى عن عروة عن عائشـة : وفتر الوحى فترة حـتى حزن رسول الله حزناً شديداً ، وغدا مراراً كى يتـردى من شواهق الجبال ، وكلما أوفى بذروة ليلقى نفسه تبـدى له جبريل ، فقال له : يا مـحمد ، إنك رسول الله حقًا ، فـيسكن لذلك جأشه وتقر نفـسه ، فيرجع ، فـإذا طالت عليـه فتـرة الوحى غـدا لمثل ذلك ، فـإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل ، فقال له مثل ذلك »

وتذهب بعض الروايات إلى أن مـحـمـداً ﷺ عاد إلى الغـار لينتظر عودة الوحى فـيه ، ولكن الوحى لم يعد ، وهذا أمـر غير مسـتبعد ، ولكن حـديث البخارى وأحـمد بن حنبل الذى رويناه الآن أوجز الكـلام إيجازاً شديـداً ، فلا يمكن أن يكون مـحمـد قد ضاقت به نفسه خلال الأيام الأولى حتى فكر فى أن يلقى بنفسه من شاهق الجبال ؛ ليـخلص من القلق الذى كان يعانى منه ، أو

ليخلص من الخوف من أن يصيبه شيء يكرهه مثل الجنون . والأرجح أن ذلك الضيق انتابه عندما طالت فترة الوحى أسبوعين أو ثلاثة مثلاً .

وقد كانت تلك الفترة من أشق ما مر برسول الله ﷺ فإن ورقة مات بعد أن بشر رسول الله بقليل . وظل محمد بعد ذلك قلقاً خائفاً حتى فكر فى الخلاص من الحياة . وينبغى أن نلاحظ أن محمداً لم يعرف أن الذى كلمه أول مرة كان جبريل ، إنما هو كان يعرف ـ كما قال له ورقة ـ أنه صوت خير من السماء ، وهذا كان من أكبر أسباب خوفه عندما طالت فترة الوحى عنه . ونحسب أن الوحى فتر تماماً خلال الأيام الأولى التى تلت الوحى الأول ، فلما طالت وازدادت مخاوف الرسول بدأ الصوت يطمئنه قائلاً: إنك رسول الله حقّا ، كما رأينا فى حديث الزهرى عن عروة عن عائشة ، وذلك كان رحمة من الله به ؛ حتى يكون على الأهبة عندما يعود إليه الوحى بآيات أخرى من القرآن .

ونفترض أن الصوت زاد فيما كان يلقى عليه من الكلام ليسكن به فؤاده ، وهنا موضع الكلام الكثير الذى تفيض به كتب السيرة ، وخاصة ابن هشام الذى يقول : إن رسول الله سمع صوتاً يناديه من السماء يقول : يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال (يعنى رسول الله) : فرفعت رأسى إلى

السماء أنظر ، فإذا جبريل فـى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول : يا محمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل .. إلى آخر هذا الطراز من الروايات .

وقد انتهت « الفـترة » نهاية منطقية ، فبـعد الخوف والقلق والحيرة بل اليأس تجىء بشـائر الفرج فى صورة هذه النداءات القصيرة من الصـوت مخاطبة محمـداً ومعلنة أنه نبى ؛ ليسكن فؤاده ، ثم تجىء البشرى السعـيدة بعد ذلك بالإفصاح الواضح عن طبـيـعـة الصـوت ومـا يريد أن يقـوله لمحـمـد ، وقـد أتانا البلاذرى فى « أنساب الأشراف » بخبر يرويه عن أبى الحارث ، شريح بن يونس ، عن سفيان الثورى ، عن معمر بن راشد ، عن ابن شهاب الزهرى قال : « فـتر الوحى عن النبى ﷺ ، وكان أول مـا أنزل عليـه : « اقرأ باسم ربك الذى .. » إلـى قوله : « مـا لم يعلم » فلمـا فـتر حـزن حـزناً شديداً حـتى جـعل يأتى رءوس الجبال مراراً ، فكلما أوفى على ذروة جـبل بدا له جبريل ـ عليه السلام ـ فـيقول : إنك نبى ، فـيسكن لذلك جأشـه ، وترجع إليه نفـسه ، فكان النـبى ﷺ يحدث عن ذلك ، قـال : بينا أنا أمـشى يوماً إذ رأيت الملك الذى كـان يأتى بحراء ، بين السـماء والأرض فجثيـت منه رعباً ، فرجعت إلى خديجـة فقلت : دثرونى . قالت خديجة : فدثرناه . فانزل الله عليه : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ (المدثر:١).

وقد ورد هذا الخبر فى صور شتى من طرق أخرى ، معظمها يقول مثلاً : إن الملك بدا له على كرسى بين السماء والأرض ، أو إن الملك قال له : أنت رسول الله ، ولكن رواية البلاذرى أقرب إلى السياق : فإن محمداً قبل « المدثر » كان نبيّا ، وبعدها أصبح نبيّا رسولاً ، أى أن المدثر تعنى المرحلة الأخيرة فى ذلك التطور الطويل الذى مر به محمد فى انتقاله من بشر إلى نبى ، ثم إلى بشر نبى رسول .

فقد بدا الملك أخيراً لمحمد ، فريع روعاً شديداً حتى جثا على الأرض، ثم نهض وأسرع إلى بيته وطلب أن يدثروه ، ففعلوا ، فلما سكن جأشه سمع الصوت يخاطبه ، وقد اعتاد محمد صوته وعرفه ، ويقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ .
(المدثر :١ـ ٧)

وتلك هى الآيات السبع القصار فى أول سورة المدثر ، وهى الرابعة والسبعون من سور القرآن .

سمعها محمد صاحبنا وفهمها واعياً صاحياً كما وعى «اقرأ» وما تلاها صاحياً متنبهاً ، وأحس أن تلك الكلمات لا يمكن أن

تصدر إليه إلا من السماء ، ففيها خطاب له بقولها : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ وكان هو متدثراً ، وفيها أمر له بأن يقوم فينذر ، أى يبلغ الناس هذه الرسالة وما يتلوها ، ويكبر ربه ، ويطهر ثيابه، ويترك كل ما لا يرضى الله ، ولا يمنن على الناس بما أسبغ الله عليه من فضل اصطفاء الله إياه ، وتكليفه بالرسالة، ويصبر على ما سيكلفه الله إياه من أمر عظيم .

وإذن فقد أصبح محمد بشراً نبيًا رسولاً ، وحمى الوحى بعد ذلك وتتابع كما يقول أصحاب السيرة ، وشرع محمد فى أداء رسالته الكبرى بشراً إنساناً كاملاً ، ورسولاً هادياً .

كانت رحلة طويلة عسيرة كل العسر على هذا الرجل الأمى الذى اصطفاه الله ، ثم « فجاه الحق » كما تقول بعض روايات حديث عائشة الذى بدأنا به هذا الحديث بدلاً من « حتى جاءه الحق » وخلال هذه الرحلة القاسية عانى محمد ما عانى ، ولكن الله ثبت فؤاده ، وأخرجه من المحنة برحمته جل وعلا .

وخير ما نختم به هذه الأحاديث ذلك الحديث الذى يرويه ابن هشام دون سند : أن جبريل ـ عليه السلام ـ أتى رسول الله ﷺ ، فقال : أَقْرِئُ خديجة السلام من ربها ، فقال رسول الله ﷺ : « يا خديجة : هذا جبريل يقرئك السلام من ربك ، فقالت خديجة: الله السلام، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام » .